تظاهرات القاهرة والموقف الأمريكي

إياد عطية

أغرب ما في التظاهرات التي خرجت في القاهرة أواخر شهر كانون الثاني الماضي لمطالبة الحكومة المصرية بإجراء إصلاحات ديمقراطية، تتضمن إلغاء قانون الطوارئ وإقامة انتخابات رئاسية، أنها احيطت بإجراءات أمنية مشددة بحيث فاق عدد أفراد الشرطة اربعة أضعاف المشاركين فيها، على الرغم من كونها تظاهرة خجولة بالقياس إلى عدد المشاركين فيها الذين لم يتجاوز عددهم (٣٠٠ متظاهر) إنها تمثل خطوة إيجابية باتجاه إحداث تحولات ديمقراطية من الداخل بعد أن أثبتت تجربة العراق أن التغيرات الخارجية كلفتها باهظة جداً، وأن النتائج أو الآثار الإيجابية التي تحدثها في المنطقة قد تأتي معاكسة لما يتوخى منها وتولد قلقاً إضافياً لدى شعوب المنطقة، وبما يمكن الحكومات من تجييرها وتوجيهها لمصلحة بقاء نظمها.

الموقف الأمريكي من هذه التظاهرات جاء خجولاً هو الآخر، عبر دعوة الرئيس جورج بوش السعودية ومصر إلى الإسراع بإجراء إصلاحات ديمقراطية، هذه الدعوة نظر إليها هنا في بغداد على أنها صرخة في واد عميق، إذ لم يثبت لنا التاريخ أن الحكومات، ولاسيما في منطقة الشرق الأوسط، قد قامت بإجراء حقيقي في أي تحول ديمقراطي بناء على رغبتها أو على تمنيات أو دعوات من الخارج، ولا يعرف على وجه التحديد جدوى مثل هذه الدعوات التي لن تلقى صدى أو استجابة لدى هاتين الحكومتين أو الأسباب التي دعت الرئيس الأمريكي لتوجيهها وفيما إذا كانت تدخل في باب تطمين هاتين الحكومتين، اللتين ترتبطان بعلاقات جيدة وواسعة مع الولايات المتحدة، من أن الأخيرة لن تعمد إلى اتخاذ إجراءات أو ضغوط ترغمهما على إجراء مثل هذه التحولات وواقع الحال يشير إلى أن الحكومات غير الديمقراطية في الشرق الأوسط والعالم العربي غير مستعدة لإحداث إصلاحات حقيقية، وهي تنظر إلى مثل هذا النوع من الإصلاحات على أنها تهديد لانظمتها القائمة.

وفي أبعد الحدود تعمل هذه الحكومة على إجراءات شكلية لامتصاص المطالب والضغوط الأمريكية.

أما الشعوب العربية فقد تكيفت مع واقع مر وباتت يائسة من أي تحول حقيقي، والديمقراطية بعيدة المنال عن أحلامها بوجود انظمة شمولية قوية يصعب اختراقها بالدعوات والتمنيات، فعلى مدى العقود الماضية أثبتت الحكومات العربية قدرتها على تفكيك وعزل القوى والتيارات المطالبة بفسحة بسيطة من الديمقراطة وحقوق الإنسان وإجهاضها قبل بزوغ ولادتها بشتى السبل والوسائل. وفي حالتي السعودية ومصر اللتين أظهرتا تعاوناً مع الولايات المتحدة في العديد من القضايا والملفات الساخنة في الشرق الأوسط، يلاحظ أن هاتين الدولتين ظلتا بمنأى عن أية ضغوط أمريكية. وقد جاءت دعوة الرئيس الأمريكي بمثابة مكافأة لهما وإشارة إلى استبعادهما من أية إجراءات أو ضغوط يمكن أن تقوم بها الولايات المتحدة بحق الحكومات غير الديمقراطية في الشرق الأوسط. وهذه المكافأة تتناقض مع مزاعم الولايات المتحدة في نشر الحرية ودعم حركات التحرر الديمقراطية في العالم، وهي غير منسجمة مع مصلحة الشعبين المصري والسعودي، وتأتي في الوقت الذي تمارس فيه الولايات المتحدة ضغوطاً حقيقية في أكثر من مكان في العالم على حكومات نظيرة لحكومتي مصر والسعودية. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: إلى متى يستمر الرئيس بوش في غض النظر عن اصدقائه غير الديمقراطيين؟ وهل للصعوبات التي تواجهها الولايات المتحدة في العراق والدور الذي تلعبه هاتان الحكومتان في الملف العراقي علاقة بهذه الدعوة؟، ولاسيما أن هذا الملف ما زال يئن من وطأة التدخل الخارجي الذي يرمي إلى إجهاض وإعاقة المشروع الديمقراطي العراقي الذي يسعى إلى إغراق الولايات المتحدة لأطول مدة ممكنة في مستنقع أعدته لها الأنظمة الدكتاتورية والقوى المتطرفة في المنطقة.

طفوف الحلة وأحزانها

أما آن الأوان أن يتجدد العهد بتكية الخالدية تضامناً ضد القتل!

رشيد الخيُّون

الحلة، وإن توالت الأسماء عليها- (الجامعين)، في العهدين الأموي والعباسي، والحلة منذ ان حل فيها بنو أسد وشيدوا إمارتهم المزيدية- لكنها تبقى وفية لاسمها الأول بابل، والمنحوت من (باب ايلو) أي باب الله. وكل الأبواب تغلق ماعدا باب الله لا نراه، ولا يراه محيي الدين بن عربي، في "الفتوحات المكية" مغلوقاً بوجه طالب دفع حيف، أو مظلمة مثلما هي طفوف الحلة:

وأبواب الملوك مُحجبات
وباب الله مبذول الفناء

قلما يخلو بيت من بيوت أهل الحلة، بعد تمصيرها (٤٩٥هـ) على يد سيف الدولة صدقة بن دبيس الأسدي، من حجرة بابلية أو آثر بابلي.

كان الحلِّيون، أو الحلاويون، منذ ان فتحت أسواق الآثار العالمية أبوابها، وما يزالون، ينبشون الأرض بحثاً عن تاريخ غطته أتربة الدهور، ولم تبقِ من الجنائن المعلقة، ولا من برج بابل غير صدىً خافت لصوت كان مدوياً في الآفاق. أخذ الحلِّيون يقلدون، من دون تكلف، صنعة أجدادهم، ينحتون من طين شاطئ الفرات تماثيل وأختاماً. لا يشعرك هذا الاختلاق بالغش والتزوير، بقدر ما يشعرك باحتضان التاريخ، والرزق الحلال من بركته. وكثيراً ما عثر الجوالون بين خرائب بابل على ختمٍ اسطواني، أو حجر من نوع الصوان الأسود مكتوباً عليه ما لا يفك رموزه، فتجمع ويعمل منها قلائد يبتاعها العارفون بسعر زهيد من الجاهلين بقيمة هذا الأثر.

منذ القدم وأهل الحلة "كلهم إمامية اثنا عشرية، ولهم مقام يسمونه مشهد صاحب الزمان". هكذا ورد عند ابن بطوطة وابن جبير، وعند كل من تصدى لأحوال البلدان. لكن الحلة الفيحاء لم تمنع أن يكون للهيتاويين السنة حيٍ كامل، ولا لبقية يهود بابل من وجود ملموس، ولا لعائلات عرفت بآل الفلوجي، ولا يمنع الكرد من العيش بتضامن وسلام. ومن إمامية الحلة ابن طاووس صاحب فتوى العدالة "سلطان كافر عادل أفضل من سلطان مسلم جائر"، أي العدل، لا الدين ولا الأيديولوجية، أساس الملك. وتلميذه العلامة جمال الدين الحلي، الذي اقنع حفيد هولاكو السلطان خدابنده بالتحول إلى المذهب الإمامي، بعد مناظرة في مجلسه مع فقيه وقاض شافعي،لم يستخدم فيها سيفاً ولا فتوى. ويحسب للعلامة الحلي تكريس الاجتهاد في الفقه الشيعي عامة. وهذا ما يثبت أن أُصول هذا المذهب أُصول عراقية لا إيرانية، مثلما يدعي المدعون. وقيل اقتبست الدولة العراقية ألوان علمها الأول من بيت شاعر الحلة، في الحقبة المغولية، صفي الدين الحلي:

بيض صنائعنا سود وقائعنا
خضر مرابعنا حمر مواضينا

خلا ذلك فالحلة واحة ثقافية، ظهرت فيها الصحف الأولى، مثل صحيفة "الفرات". ويكفي زمنها المتأخر أنها أنجبت ناقداً وأديباً بحجم علي جواد الطاهر، وآثارياً كبيراً بحجم طه باقر. ولشيوخ الحلة من آل الماشطة شأنهم في فهم المستجدات والتفقه فيها، فكان الشيخ عبد الكريم الماشطة عضواً في منظمة أنصار السلام العالمية، وألف كتاباً بعنوان "الماركسية لا تتعارض مع الدين ولا مع القومية" (١٩٥٩). وعلى منهجه الديمقراطي سار الشيخ يوسف كركوش صاحب "تاريخ الحلة".

صاحبَ هذه الجدية في الفضل والعلم والأدب تراث في الفكاهة، ما زال العراقيون يستمدون منها فكاهتهم، والتغلب على أحزانهم. تارة بقصص الباقلاء الشهيرة، وتارة أخرى بتداول الطرائف حول المطرب الجدير سعدي الحلي، وهم يقصدون صدام حسين. فكم كان لهذا الحلي من فضل في التخفيف عن صدور العراقيين أوان ضائقتهم، وكم كان له من الفضل في حمايتهم من أحكام سجن وإعدام، عندما جعلوه محلاً لتورية ما لا يقدرون على الإفصاح به. وقيل لما شعرت السلطة بأن المقصود بهذه الطرائف المثالب هو صدام التكريتي، لا سعدي الحلي، حرمت تداولها. حرمت الضحك والبهجة، مثلما حرمت البكاء على قتلى الحروب والمقاصل والاغتيالات. وهكذا بلغ الحصار أشده في اظهار المشاعر فرحاً أو حزناً.

بطبيعة الحال، القتلة لا ينظرون في تاريخ المدن، ولا يعيرون أهمية لفضلها، ولا يطربون لمزاج بيئتها وبشرها. كانت فاجعة الحلة الأخيرة أكبر من تدبير صبي، مرشده إمام مسجد المحاويل، حسب الأخبار الملتقطة من هنا وهناك، بل الهول أنها متصلة بتصفيات عرقية. كلما حاولنا النأي عن الخوض فيها، بعداً من لعبة الطائفية اللعينة، نجد أنفسنا أمام طفوف لا طف واحد تعاد ذكراه في عاشوراء من كل عام. قال مزيد الخشكري في هذه الطفوف يوم تعرضت الأهوار لمثلها زمن الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ) العباسي:

فكأنما الهور الطفوف وأهله
الشهداء وابن معية ابن زياد
نحن أمام طفوف تجوب وسط وجنوب العراق، يمارس فيها قتل متعمد على الهوية المذهبية. منفذوها جزارون محترفون، اتخذوا من بساتين اللطيفية مسلخاً ومقبرة رؤوس منزوعة من أبدانها. أكد لنا هؤلاء أن عصر جعفر المتوكل ووزيره ابن خاقان عاد مرة أخرى. عاد هذه المرة عن طريق عصابة لا خلافة. فالخلافة إنهارت من دون عودة، وما مجازر الطفوف الحالية إلا حشاشتها. فمثلما كان يُسأل زائر ضريح الإمام الحسين، ويؤخذ ويُذبح، أخذ زعماء مثلث الموت يسألون ركاب السيارات عن مذاهبهم، ويطلبون منهم شتم علي بن أبي طالب والحسين بن علي. فالشيعة عند السوداني من آل الترابي، وعند الأردني من آل الزرقاوي، وعند السعودي من آل بن لادن، وعند المصري من آل القرضاوي لا حق لهم في الحياة، ولا حق لهم في الدولة، إنهم مجرد مشروع قتل، تُحش رقابهم كحش نبات الأرض الزائد.

يشعر زماننا بالخجل، وقد بلغ العام الخامس بعد الألفين، ويجري فيه الحديث عن خلاف سُني شيعي بالخناجر وزنانير المتفجرات، ويطلب فيه البراءة من عقيدة أو عاطفة، ليس لها تاريخ مؤذٍ. فأقصى مؤذياتها بكاء وتسويط وتطبير يتحمله صاحبه. عقيدة فرشت نفسها على طين العراق، وتجاورت مع عقائده الأخرى. فلماذا كل هذا الجور وهذه القسوة ضدها؟

قسوة لا يتحمل وزرها أتباع الإمامين أبي حنيفة والشافعي.

فهذان الإمامان زرعا بذرة المودة، وليس في أحكامهما قتل أهل دين ومذهب. وأبو حنيفة أول الخارجين على السلفية، فهو صاحب رأي، مقامه بين الفلاسفة، وجهابذة العلم الديني والدنيوي، لا بين مجاميع المتعصبين، أمثال من إذا رأيت وجوههم وليت من قسوتها هرباً.

أين زمن هؤلاء من زمن وفد تكية الخالدية السُني، المتضامن مع شيعة العراق ضد طرف سُني آخر جار عليهم بالقتل والسلب، وبقر بطون نسائهم، وأهان أضرحتهم. أين الجماعات السنية المتطرفة من كلمة الشيخ الجليل أمجد الزهاوي ضد غارات السلفيين على السماوة وكربلاء والنجف: "يجب تأديبهم بكل صورة". أين هؤلاء من فتوى علماء سنة العراق في قتال من اعتدى وجار على مواطنيهم الشيعة، القائلة "نعم يجب قتالهم والحالة هذه"؟ وشبح السلفية اليوم يجوب بمتفجراته أرض الوسط والجنوب.

هذه الجماعات ليست أجل وأعلم من مفتي تلك الفتوى، وهم نواب الإمام أبي حنيفة النعمان، الشيوخ الأفاضل: عبد الوهاب النائب، وعبد الملك الشواف، وإبراهيم الراوي، وخضر القاضي، ومنير القاضي، وعبد الجليل الجميل، وطه الراوي، ونعمان الأعظمي، وعلي القرداغي، وأمجد الزهاوي، ومحمد رشيد الشيخ داوود، وخليل حسن النقي، وبهاء الدين النقشبندي، وأحمد الراوي، ومحمد رؤوف (الوردي، لمحات اجتماعية، عن جريدة الاستقلال١٩٢٢).

كان هذا موقف رجال الدين السنة، صاحبه موقف رجال السياسة والعشائر السنة، من الوجهاء والشيوخ. بينهم مولود مخلص، وسعيد الحاج ثابت، وعجيل الياور، وثابت عبد النور، وعبد الله آل رئيس العلماء، ومحمد أغا. وتوجه الجميع إلى كربلاء معلنين موقفهم الديني والوطني والإنساني الصريح ضد عصابات القتل القادمة من الجزيرة. ولم يثن هؤلاء تخلف السيد محمود شكري الآلوسي، وحمدي الأعظمي، وقاسم المفتي عن الوفد وعن التضامن. فكان للآلوسي رأي مؤيد للسلفيين، وثقته مجلة الشيخ محمد رشيد رضا "المنار".

مر قبل أيام عاشوراء مدمى بمأساة مركبة، جمعت بين صدى صهيل خيول ابن زياد، وعمر بن سعد وبين أصوات متفجرات البعثيين والسلفيين، أو إتحاد الأنصار والمهاجرين الجدد. مجموعات دربت ببلاد الشام. بدا المشهد وكأنه من مشاهد صفين، وما كان بين أهل الشام بزعامة معاوية وأهل العراق بزعامة الإمام علي. كم كان الزمن الفاصل بين صفين والحلة خالياً من حدث رائع يجلي عن زمننا قذارة الضغينة، التي لا تنفع معها ليونة دين، ولا حصافة إمام، ولا حداثة علم. فهل ستفعلها هذه الجماعات وتعلن مقتها وحربها ضد طفوف الحلة والنجف وبغداد، وتُجدد الاجتماع بتكية الخالدية؟ هل ستفعلها وتضرب سرداقاً لها في أرض المجزرة وسط الحلة؟ هل ستفعلها وتتبرأ من قسوة ودموية البعثيين، ولا تعارض إجتثاث مثل أحفاد ابن زياد ومرجانة؟ فهاهم وجهاء الشيعة، بعد فوزهم، يمدون اليد، ولا يرغبون باستحواذ في السلطة، ولا استبعاد لشركاء في الأرض والوطن والتاريخ، يريدون الأمن والأمان، ورزقاً زكته مياه الرافدين، ودرته أرض السواد.

طفوف الحلة وأحزانها من الهول أن اختلطت فيها جثث الأجناس، النساء والرجال، البنات والصبيان، الأطفال والشيوخ، الأغنياء والفقراء. إنه مجتمع السوق وما يحويه من طبقات البشر. تكومت اللحوم على اللحوم واختلطت العظام بالعظام، و وقفت الأمهات أمام تل من أيدٍ وأرجل، يذكر بمشهد من مشاهد القبور الجماعية، يوم ظهرت إحدى الأمهات تحمل ذراع ابنها تحاول جمعها ببقية جسده المُفرق في الطين. وعندما سألها الصحفي وكيف عرفت أنها ذراع ابنك؟ قالت: عرفتها من ردن قميصه. فاق عدد قتلى الحلة المئة، وهو يقترب من عدد وجبة واحدة من وجبات المعدومين الأسبوعية في سجون البعث. لا قيمة لهذا العدد عند أمين الجامعة العربية عمرو موسى، ولا قيمة له عند تنظيم القوميين العرب، فزعامتهم بيد معن بشور، ولا قيمة له عند مقاول المقالات فهمي هويدي وأضرابه.

تاريخ طويل والأضرحة بالعراق مشرعة الأبواب، والمساجد والكنائس والمعابد لا تغلق بوجوه المصلين والزائرين. لا مسلم يتعدى على مسيحي أو يهودي، ولا صابئي أو أيزيدي يساهر خوفاً وقلقاً على دينه وحياته. ولا يتجاوز سُني على عزاء شيعي، ولا يفسد شيعي مولداً أو ذكرا سُنياً، إلا ماكانت تسعى إليه الدولة. فالفرقة من ديدنها لا ديدن الناس، لا تخرج إلى طبقاتهم وطباعهم، ولا يؤثر ميلها الطائفي أو الديني في قلوبهم.

البعثيون وحدهم تمكنوا من جعل الخلاف في الأذان، أو مواعيد الأعياد، خلاف دماء وسيوف. وحدهم أفزعوا السائرين في مواكب عاشوراء راكبين وراجلين. وهي إذا نظروا لها وجدوها تاريخاً من العرف والعادة والفن. وبدلاً من المساهمة في تشذيبها والمساعدة في دعمها، مثلما تدعم الحكومات تراثها الشعبي، تقدموا لقمعها في سلطتهم، ورشقوها بالديناميت الحارق في زمن معارضتهم.

ليس هناك أضعف وأرق من البكائين، والشيعة قوم بكاؤون. يعتذرون لجريمة من جرائم التاريخ لم يقترفوها. نفذت في طفل رضيع وفي صبي تخيلوه مذبوحاً في زفة عرسه. أجد في عاشوراء ثقافة اعتذار لايجيدها غير أهل القلوب اللينة. فعلام تحرق سرادق الباكين وهم يألفونها منذ أربعة عشر قرناً؟ يقام فيها حزن نبيل، لا يعطل دولة ولا يلغي ديناً ولا يتجاوز على مذهب. ومن فوائد هذا الإيلاف السنوي إلهاء الناس عن مصائبهم، والزيادة في بركة السوق، والجائع وابن السبيل يجد فيه طعاماً وشراباً من دون حرج، ناهيك عن صناعة الشعر والأدب والفن، وإلفة الاجتماع. يعلم العارفون، أن ممارسة هذه المراسم في أرض العراق متصلة بحزن نبيل قديم، منذ سومر وبابل، حتى شاعت في كنائسه بأحزان مريم العذراء وآلامها السبعة، وسرت في حسينياته وتكاياه الصوفية بعبرات زينب الحوراء. بالعراق خصوصاً يحضر المديح الحسيني في التكية أو الذكر القادري السني وفي المجلس الحسيني الشيعي على السواء. يُقرأ ما نظم على لسان الحسين، وهو يحاول تذكير جيش ابن زياد بفضله:

خيرة الناس من الدنيا أبي
بعد جدي وأنا ابن الخيرتين
والدي شمس وأمي قمر
وأنا الكوكب وابن النيرين
فضة قد خلصت من ذهب
وأنا الفضة وابن الذهبين

عاشوراء تقليد شعبي، لا يختص به المتدينون فقط. فالعديد من شعراء المنبر الحسيني، و (رواديده)، أصحاب أجمل أصوات المنبر وأجمل الشعر، هم من خارج هذا الوسط المتدين، ولا يعبأ بالإلتزام الديني، لكن تجد عاشوراء قضية وجدانية لديه، يشترك فيها الشيعي المتدين وغير المتدين. والقصيدة الشعبية الشهيرة "يا حسين بضمايرنه" (١٩٧٢) لرسول محيي الدين النجفي، والتي تُسمع عادة بصوت الرادود ياسين الرميثي، أشارت إلى هذا الجانب بوضوح. قال:

أفرض يجتذبنه الكاس ويسحرنه
هوى التجديد
أفرض نلتهي نقامر ونتصرف بلا
تقييد
شما تفرض بعد يحسين شما
نعمل بعد ونزيد
لا بد ما تجي الساعة البيهه
ننتبه ونعيد

وكان أبلغ قصائد وأرق صوت بالحلة قاطبة للملا محمد علي القصاب، الذي توفي قبل أيام ونعته الأوساط الإعلامية. وهو شاعر أكثر أغاني المطرب سعدي الحلي وملحنها. يُقال إنه لما أراد جذب الشباب إلى موكبه، موكب الهدية بالحلة في عاشوراء، أطلق لطمية جذابة عارض فيها لحن أغنية سريعة شهيرة (بلاسا بلاسا نايلون)، فأنضم إلى موكبه شباب المواكب الأخرى. وهو أحد المعاندين لرجال الأمن بأشعاره وتصرفاته. يتذكر الحلِّيون له البيت الطريف وذا المغزى التالي:

خدودك حمر شيوعيات
واعيوني أمن تتحرك

كل هذا يؤكد أن عاشوراء موسم شعبي، قبل أن يكون موسماً دينياً ومذهبياً، جذب مكونات العراق الأخرى بين متضامن ومتشوق ومشارك. بطبيعة الحال، ليس لنا الموافقة على إباحة الجامعات والطرقات والدوائر لمواكب اللطم والتطبير والتسوط. وليس لنا الموافقة على مشاهد الدماء في الساحات العامة، بل نقف مع ادامة التعبير عن هذا الحزن الشعبي بمواكب بابلية، يتقدم فيها الشعر والخطابة، ووحدة الملبس والرايات. لكن لا أجد بين أهل هذا المذهب من تجاوز على صحيفة كتبت ناقدة تلك الممارسة، أو هدد كاتب مقالة لا يجد في هذه الممارسة ظاهرة حضارية. نعلم أن شيوخاً كباراً في المذهب حاولوا تشذيب وتهذيب التعبير عن هذا الحزن المزمن، ومازالوا يحاولون.

برع البعثيون بأساليب القتل، مثلما برعوا بأساليب الهزيمة، فصيدهم لا يحتاج إلى شجاعة. وهل يحتاج شجاعة قتل المصطفين أمام مخبز؟ وهل يحتاج شجاعة ترك سيارة مفخخة وسط السوق؟ أو اعتراض مسافرين، لا يحملون غير أمتعتهم ونياتهم. يدرك البعثيون أن لا شيعة العراق سيصدقون أن ما يجري ضدهم ضغينة مذهبية عامة. مثلما لم يصدق المسيحيون العراقيون أن تفجير كنائسهم، وقتل شبابهم هو ضغينة إسلامية. وكذلك لم يُخذل الصابئة المندائيون ولا الأيزيديون ولا اليهود من وقفة مواطنيهم المسلمين معهم، عندما تعرضوا إلى تجاوز على أموالهم وأرواحهم.

فاجعة الحلة تدبير بعثي وخبرة سلفية، مُهد لها، على لسان صحافة البعث، بشعار "لا شيعة بعد اليوم". والفاجعة أو الطف واحدة من مسلسل الإصرار على خلق فتنة طائفية، تجاوز العراقيون خطرها، وتحصنوا منها بسور صيني. إنه النزع الأخير في أمل العودة إلى السلطة، أو بداية النهاية لحقبة سوداء، كلفت ما كلفت من الأرواح والأموال. ولعلها تكشف لأصحاب الوهم نذالة الوسيلة والغاية في أمة عربية واحدة، أودولة سلفية.

(الامبرياليون الشاردو الذهن)

وموقف المجتمع البريطاني من الامبراطورية

ترجمة / عادل العامل

في ذروة القوة الأمبريالية البريطانية، سواء أكان الرأي في الوطن مشبعاً بايديولوجيا وثقافة (الامبراطورية)، أم في الأقل لا مبالياً بالمشروع الامبريالي، أصر مؤرخا الأمبريالية البريطانية الكبيران رونالد روبنسون وجون غالاغير Gallagher على اللامبالاة، وجادلا بأن الحسابات الخاصة للوزراء ومستشاريهم الرسميين كانت تبدي قلقاً مستمراً من أن جمهور الناخبين (والرأي العام، بشكل أوسع) سيقسو على توسيع الأعباء الأمبريالية، ليس في الأقل للكلفة التي كان يفرضها على دافع الضرائب. ولو أدى التوسع الأمبريالي إلى كارثة عسكرية، فإن العقاب الانتخابي سيكون قاسياً بوجه خاص: هكذا كان درس انتخابات غلادستون عام ١٨٨٠، بعد ان تلفت حكومة دزرائيلي بفعل حروب الأفغان والزولو. وكان على التوسعيين المدعين أن يخفوا نواياهم ويعلنوا إدعاءاتهم الزائفة عن الحاجة إلى الدفاع أو المكاسب من التجارة. وعندما بدأت الأمبراطورية تكلف أموالاً مهمة (بعد الحرب العالمية الثانية)، تخلص جمهور الناخبين منها من بدون فكرة ثانية، وقد اندفع المؤرخون، في سنوات أحدث، مثل الأوز، نحو الطرف الآخر من الحقل. ومن المؤكد الآن على نطاق واسع أن الثقافة العامة البريطانية كانت (مؤمبرلة imperial-ized) بشكل عميق: فأقر الرأي العام (المهمة) الامبريالية. وكانت الفضائل والرذائل ذات النزوع العقلي منتشرة في المجتمع البريطاني على نحو عام إلى حد أنها تخللت (أو أفسدت) تقريباً كل قضية في الميدان العام، فضلاً عن الأدب والفكر وحتى السلوك المنزلي.

ويشعر منتجو BBC الآن أنهم مؤهلون (وربما حتى ملزمون) لإدراج مشاهد زائفة ذات حوار (امبريالي الطابع) في نتاجاتهم الموهبة عن الروائيين أوستن أو ترولوف، تماماً كما كانوا يضيفون، قبل سنوات قليلة، قدراً من الجنس المجاني.

في كتاب (الإمبرياليون الشاردو الذهن: ما فكر به البريطانيون بشأن الأمبراطورية)، وهو كتاب مفعم بالحيوية ومكتوب بإحكام، يواجه الكاتب بيرنارد بورتر هذه الفكرة العصرانية مباشرة. وفي كل دراسة من دراسات الرأي، تصبح الوسيلة التاريخية قضية مركزية. ومن السهل إلى حد كاف بفعل الاقتباس الانتقائي القيام بإدعاءات مفرطة واستخلاص استنتاجات كاسحة. وحتى لو أمكن، من جهة أخرى، اصطياد المطلوب من خلال الوفرة الهائلة من المواد المطبوعة والمنتجات السمعية - البصرية، فضلاً عن النحت والمعمار والفن، وفي أقل ما يسمح به العمر، بحثاً عن موضوعات إمبريالية أو افتراضات لم يجر التحدث عنها، فسيكون من الضروري - مع هذا - تفسير ما يتم العثور عليه. هل الصحافة (الوطنية المتطرفة) كانت تعكس الرأي العام أم تسعى لإقناعه؟ وهل كانت روايات المغامرة المعدة في أماكن غريبة تكشف عن شهية عامة للاستيلاء والحكم؟ وهل كان فن المشهد القتالي يوحي بشهوة للحروب الكولونيالية؟ هل كانت الترويجات التجارية لبرتقال جنوب أفريقيا أو الزبيب الاسترالي تتضمن تعلقاً عاطفياً بأراضي الاستيطان الأبيض؟ أم كان سيل الدعاية الإمبريالية العظيم يقصد به الانسجام مع مزاج الحماسة الإمبريالية أو مقاومة تأثيرات اللا مبالاة التي تحط منها؟ إن حل المؤلف لهذه المشكلة الميثودولوجية هو الأمر الرئيس بالنسبة لهذا الكتاب. وهو يقع في قسمين. فقد قام بورتر، لتوفير المعطيات، بأخذ عينة تتمثل في مجموعة ضخمة من المواد المصدرية: حوالي ٧٨ صحيفة ومطبوعاً دورياً ومجلة مدرسية، من (تايمز) إلى (تيت - بيتس) مروراً بـ(هاروفيان)، منشورات رسمية تتسلسل من (هانسارو) إلى قائمة (لورد تشامبرلين) بالمسرحيات المنجزة، أكثر من ١٠٠ كتاب مذكرات. أكثر من ١٣٠ كتاباً مدرسياً، تتضمن (تاريخ انكلترا) لماكولاي، أكثر من ٢٠٠ منشور معاصر، بما في ذلك الكثير من الروايات الشعبية. هذا هو ما يشكل موقع حفريات بورتر الذي هو، بالمناسبة، مولع بالفاظ الاستعارة الآثارية). ولكن لمنع (كسر) المادة الإمبريالية من تشويه العينة، يصر بورتر على وجوب وضع هذه الكسر في سياقها الأصلي: أن يتم ترتيبها على الخلفية المكونة من كامل الدليل الآخر على المواقف السياسية والمعتقدات الشعبية والعبارات المجازية الأدبية والثيمات المسرحية والصيغ الفنية وأفعال قاعات الموسيقا وموضوعات الكتب المدرسية. والكثير من الأمبريالي الشارد الذهن يتم تبنيه بتخمين عدد وحجم الكسر مقابل الكتلة الكبرى للشؤون اللا إمبريالية. وفي سياق التحقيق، يخضع عدد من الادعاءات الأكثر تحمساً عن مكانة الامبراطورية في الثقافة الشعبية للنبذ التام (والمبرر).

الاستنتاج الإجمالي سلبي إلى حد كبير. يسلم بورتر بأن هناك دليلاً وافراً لصالح المواقف الإمبريالية واضفاء الصفة الذاتية على القيم الإمبريالية والإيمان بالمهمة الإمبريالية. ولكن بدلاً من نشر ذلك عبر المجتمع البريطاني، فإنه كان يحزم بشدة. ولم يكن، في ثقافة الطبقة العاملة، ملحوظاً بصورة عملية. فقد كانت الإمبراطورية لا تحظى بأي اهتمام وتثير حماساً أقل وسط جماهير المستمعين والقراء والمصوتين من الطبقة العاملة، التي كانت مذكراتها تتجاهل الموضوعة الإمبريالية. أما الأدب الشعبي فقد هيمنت فيه موضوعات الرعب والجريمة والجنس، ولا أثر فيه للإمبراطورية. والأكثر من هذا، كان هناك، في أعلى الهرم الاجتماعي، في الطبقة الوسطى الفكتورية، لا مبالاة أقل، ولكن ليس أقل كثيراً، فقد كانت هناك وفرة من الحماس لانتشار التجارة الحرة، أو حتى الإنجيل، ولفكرة أن بريطانيا في طليعة التقدم. غير أن الليبرالية الفكتورية التي انجذبت إليها الطبقة الوسطى، كانت ذات طابع عالمي في وجهة نظرها، ومتشككة بعمق في الادعاءات الفاشستية للإمبراطورية، وضجرة إلى حد الخبل من الحديث عن الراج (الحكم البريطاني للهند) والجهات الوحيدة من المجتمع الفكتوري التي كانت المواقف الإمبريالية سائدة فيها هي الارستقراطية وذلك الجزء من الطبقة المتوسطة العليا الذي يعد فيه تسيير امبراطورية جزءاً من الحق المكتسب بالمولد للنخبة الحاكمة.

حجة بورتر مبنية على اختبار متسع لما كان المجتمع الإنكليزي من كل الطبقات يقرأ ويكتب ويعتبر ويسمع ويقول في القرن التاسع عشر الطويل، والقرن العشرين الأمبريالي القصير. وهو دقيق في تبنيه لطابع لا عقائدي. والنص متبل بملاحظات جانبية تحادثية للقارئ تعطي انطباعاً بأنه قد يكون مخطئاً، لكنه من المحتمل أنه لم يكن كذلك. ولكن خلف هذه الستارة الملطفة، هناك قطيع كامل من الأبقار المذعورة يجري سوقها للذبح. وبورتر متشكك في الادعاء العصراني بأن الهوية الانكليزية قد شكلتها المقارنات الخالية من الإطراء unflatter-ing مع الشعوب غير الأوروبية، فقد كانت أكثر ترجيحاً بكثير، لو أن التواريخ الشعبية مرشدة بأية حال، لتأكيد التباين مع اسلافهم (المتوحشين). وهو رافض للاقتراح، العصراني أيضاً لدرجة عالية، بأن عنصرية القرن الحادي والعشرين هي السليل المباشر للمواقف الإمبريالية، محتجاً في ذلك بأن وجهة نظر الأغلبية في انكلترة الفكتورية كانت تعزو النجاح الانكليزي للمواقف الثقافية وليس العنصرية، فالانكليز كانوا في المقدمة، لا في الأعلى. والعنصرية حديثة العهد كانت ظاهرة بعد كولونيالية. وهو يسفه ساخراً الفكرة القائلة بأن الانكليز قد تشربوا بالهوى الأمبريالي سوية مع فحمهم، لأنهم كانوا يشربون الشاي (أو يستهلكون منتجاً كولونيالياً آخر) وفي الحقيقة، كان من الواجب (أنكلزة andlicized) أغلب المواد الغذائية الدخيلة بشكل بالغ الشدة قبل أن تروق للمستهلكين المحليين. كما لم يكن الانشغال الفكتوري بالرجولة أو العزم مرتبطاً بالضرورة بالسعي وراء الامبراطورية، فالواقع أن بعض الصفات المطلوبة في الحكام الأمبراطوريين كانت حيادية الجنس على نحو مدهش. وكانت الروح الحربية الفكتورية المتأخرة تجد تفسيرها بلغة الخوف من الغزو على نحو أكثر معقولية مما بلغة الحافز لخوض المعارك في المستنقعات والأحراش الكولونيالية. ويمكن قول الكثير من الشيء نفسه عن الوجدان الملكي في أواخر القرن التاسع عشر، فلم يكن هناك ارتباط حيوي بالتحمس الأمبريالي. ويحول بورتر ناره نحو أمر مفرقع آخر: انتقال الرسالة الإمبريالية خلال وسط الرواية. فقد كانت الرسالة، إن وجدت على الإطلاق، على درجة عالية من التشفير تجعلها عصية على الفهم بالنسبة لأغلب القراء، الذين كانت المغامرة - وليس الإمبراطورية - هي الجاذب الرئيس. وإذا كان هناك جمهور واسع للروايات (الإمبريالية)، فلا يدهشنا كثيرا أن مؤلفاً مثل ترولوب، الذي كان منتبها بشدة لميل السوق، لم يكن يبدي أي اهتمام في كتابة رواية واحدة. كما لا يمكن افتراض أن كتابة رواية المغامرة كانت تعبر عن ميل للإبراطورية.